

معناها أن تتكلم بشيء ما وأنت تقصد غيره

# الكناية في القرآن.. بلاغة وسحر بيان

بقلم: رائد الشنخ

لا يخفى أن نشأة أي ظاهرة لغوية هي نتيجة عوامل دافعة وعوامل مؤسسية لنشأة هذه الظاهرة وأنها لا تكون اعتباطية وإنما لتأدية وظيفة ما فما العوامل الدافعة لذلك؟

أولاً - إن اللغة هي منتج إنساني ولذلك فهي تتحرك مع الإنسان وتنمو معه.

ثانياً - إن اللغة هي مرآة يجب أن تعكس الصورة التي تقابلها ذهنياً؛ فكلما شجرة أو بيت أو امرأة تتحول ذهنياً لما يعادلها في الطبيعة مباشرة إذا كانت حسنة وتنعكس وجدانية إذا كانت معنوية أو غبية.

ولذلك فإن كل جديد في الواقع الحسي أو الوجداني يحتاج إلى مضمون لغوي يعبر عنه ويدل عليه ويكون ذلك بتوليد المعاني الجديدة والاشتقاقات المستحدثة.

وكما أن اللغة تواكب الإنسان في تمدنه أو انحطاطه؛ فإنها كذلك مرآة الناطقين بها تعكس فكرهم وثقافتهم وأدبهم وتاريخهم.

ولعل هذا هو سر افتخار كل أمة بلغتها كما هو حال العرب بفخرهم واعتزازهم بالقرآن الكريم الطود الشامخ في الأدب العربي بحيث وجد فيه العرب ضالتهم وجوهرتهم النفيسة التي افتنوا في التنقيب في إبداعاتها وجمالياتها فصاروا لا يرون فيه مجرد كتاب بنيانه الكلمات وإنما عالم يزخر بالصور والإبداعات والمعاني المتجددة فصار قراءه يقرؤونه بقلبه ولسانه؛ فكل كلمة فيه تحرك الخيال وتوقد فيه الأحداث والصور فما منشأ هذه الحالة الفريدة من نوعها في القرآن الكريم؟

ف نجد القرآن الكريم قد خرج باللغة العربية إلى ثوب جديد تزداد جدته مع الأيام وهذا ما دعا اللغويين من أهل العربية إلى تتبع هذه الخصائص القرآنية؛ فمنها ما درسه باستفاضة ومنها ما لم يوسعه بحثاً وتنقيباً ومن هذه الأبواب التي ظلت - إلى يومنا الحاضر - دون دراسة شاملة ومتخصصة «الكناية» إذ نجد - في باب الكناية في القرآن الكريم - إلا نتفاً هنا وهناك تذكر للاستشهاد على وجه من الوجوه؛ لأنهم اهتموا أولاً بالإعراب واللغة والأحكام ولا نجد دراسات منهجية مبنية تتناول فنون البلاغة القرآنية بتفصيل دقيق.

الكناية ثلاثة أقسام:

١ - كناية عن صفة.

٢ - كناية عن موصوف.

٣ - كناية عن نسبة.

وعند بعض البلاغيين - ومنهم السكاكي - أن الكناية تتفاوت إلى:

١ - التعريض.

٢ - التلويح.

٣ - الرمز.

٤ - الإيماء.

٥ - الإشارة والإرداف.

فالكناية في اصطلاح علماء البيان: لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلي فالمتكلم يترك اللفظ الموضوع للمعنى الذي يريد التحدث عنه ويلجأ إلى لفظ آخر موضوع لمعنى آخر تابع للمعنى الذي يريده فيعبر به عنه. ويختلف أسلوب المجاز عن أسلوب الكناية في أن أسلوب المجاز يشتمل على قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلي أما القرينة في أسلوب الكناية فإنها لا تمنع إرادة المعنى الأصلي.

ويقول عبد القاهر: «الكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيؤمى به إليه ويجعله دليلاً عليه».

وهذا التعريف هو ما سار عليه كثير من البلاغيين الذين جاءوا بعده وليس في كتب

## الكناية في القرآن الكريم

موضوعاتها ودلالاتها البلاغية

الدكتور

أحمد فتحي رمضان الحياتي

استاذ البلاغة المساعد في قسم اللغة العربية كلية الآداب / جامعة الوصل



## القرآن الكريم خرج باللغة العربية إلى ثوب جديد تزداد جدته مع الأيام

البلاغة المتأخرة أروع من هذا التعريف وكل ما فعله السكاكي والقزويني وشرّاح التلخيص أنهم رتبوا ما في «دلائل الإعجاز» وقسموا الكناية إلى أقسامها الثلاثة واختصروا أمثلته وعلّة حسناتها وتأثيرها وليتهم وقفوا عند ما ذكره عبد القاهر ونقلوه نقلاً صحيحاً! وإنما اختصروه وأصبحت العلة في بلاغة الكناية الانتقال من اللازم إلى الملزوم معين ومعلوم. وكما كان لعبد القاهر الفضل على المتأخرين؛ أيضاً كان له الخطر على ما صنعه - فيما يتصل بتأثيره في المتأخرين - أنه قدم لهم الأسس التي بنوا عليها كثيراً من التصورات الضارة التي قضت تماماً على البقية الباقية من حيوية البحث في الأنواع البلاغية للصورة وأهم هذه الأسس وأخطرها فكرة الإدعاء وما يتصل بها من جعل الاستعارة والتشبيه والكنائية طرائق للإثبات.

وهذا من وجهة نظري يدل على استجابته لمؤثرات كلامية ومنطقية متصلة بثقافته حيث لا يغيب عن أذهاننا أنه أشعري ومن المتكلمين؛ ولهذا كان اعتماده على الاستدلال والقياس والإثبات. إحصاء ودراسة ما ورد من الكناية في سورة النساء

من خلال استعراض أسلوب الكناية في سورة النساء لن أتناول هذه التقسيمات

الثلاثة وهي الكناية عن الصفة والموصوف والنسبة بل سوف أتناولها من خلال التنبيه أو التلخيص على المعنى المهذب الجميل الذي تضيفه هذه الكناية على الآية مما يظهرها بالمظهر الحسن المؤدب والمهذب.

قال الله تعالى: «وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً» (٢١) «النساء» فقد جاء معنى الكناية في قوله: «وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ» في الإفضاء إلى الشيء؛ لأنه عبارة عن المباشرة له والذي عنى الإفضاء في هذا الموضوع هو الجماع وهذا أسلوب حضاري مهذب فالكناية هنا بارزة حيث تطرح مضامينها طرحة فذا فيه الفنية والجمالية وفيه الطرفة والحشمة.

قال الله تعالى: «حَرَمْتَ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَأَخَوَاتِكُمْ وَعَمَّاتِكُمْ وَخَالَاتِكُمْ وَبَنَاتِ الْأَخِ وَبَنَاتِ الْأَخْتِ وَأُمَّهَاتِكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتِكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتِ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبِكُمُ اللَّاتِي فِي جُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَجَلَائِلُ آبَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً» (٢٣) «النساء» فقد جاء معنى الكناية في قوله: «اللّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَ» عن الجماع كما تقدم أو الجلوة.

قال الله تعالى: «وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا

الروم. لكي لا تكون سعادة طرف على حساب الطرف الآخر بالمساواة بينهما وإخفاض كل منهما جانبه للأخر لتستقيم الحياة الزوجية بالمعروف؛ فقد جاء معنى الكناية في قوله: «وَأَهْرَجُوا فِي الْمَضَاجِعِ» (٣٤) «النساء» عن الجماع وهذا أسلوب حضاري ومهذب كما ذكرنا سابقاً.

قال الله تعالى: «وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا» (٣٨) «النساء» فقد جاء معنى الكناية في قوله: «وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا» المداومة على المعاصي واستحواذ الخطيئة على الإنسان؛ لاشتماله على القبائح والقرين هو التابع اللازم للإنسان فكما لزمه ازداد تأثره به وأخذ منه وماذا يرتجى ممن قرنيه الشيطان غير كثرة الولوغ في المعاصي بحيث لا ترى له قرب هداية ولا تأمل فيه خيراً وكل ذلك أوجز بعبارة: «وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا» وهذا بين أن الله ما أنزل العذاب على قوم استعجلاً وإنما لعلمه سبحانه أنهم لا ترجى هدايتهم فوجودهم فساد في فسار.

قال الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يضاعفها وَيؤت من لدنه أَجراً عظيماً» (٤٠) «النساء» فقد جاء معنى الكناية في قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ» الدقة في الوزن والحساب وقيام العدل في أدق الأمور وعدم خفاء الأمور الهيئة على الله فالله سبحانه ليس في حاجة لأن يظلم عباده وقد جاءت الكلمة لبيان أن الله لا يريد أن يظلم وأنه سبحانه لا يقع منه الظلم سهواً أو قصوراً فهو محص لأدق الأمور وهذا ما بينته الآية الكريمة.

قال الله تعالى: «يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً» (٤٢) «النساء» فقد جاء معنى الكناية في قوله: «تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ» شدة الندم والخوف من عقاب الله وبيان الخسران وظهوره لأصحاب الموبقات وتسوى بهم الأرض يعني خفاؤهم بعد ظهور وصغارهم بعد علوهم وتكبرهم وذلك بعد أن وجدوا أنهم لا حول لهم ولا قوة وجيء بهم ليفتضحوا على رؤوس الأشهاد فتمنوا لأنفسهم أن تسيخ بهم الأرض.

قال الله تعالى: «بَا أَنبَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمُ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً» (٤٣) «النساء» فقد جاء معنى الكناية في قوله: «من الغائط» المكان المنخفض من الأرض وذكر عما يستهجن ذكره فكنى عنه بمكانه وهو كناية عن الحدث جرياً على عادة العرب وهي أن الإنسان منهم إذا أراد قضاء حاجة قصد مكاناً منخفضاً من الأرض وقضى حاجته فيه.

وفي معنى الكناية في قوله: «لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ» الواقعة وقد دلت عليه القرينة والإعراض عنه لصفه الذهن عن تصويره وقد ضربت الآية «من الغائط» أو لأمست النساء» مثلاً لما يفح عن ذكره وهو قضاء الحاجة والجماع؛ لأن ذهن الإنسان يتصور الكلام الذي يسمعه وطائر الخيال يلقي في روعه صور المعاني فكان من الأجدر الإعراض عن المعنى الأصلي.

قال الله تعالى: «الْم تَرِ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصيباً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضَلُّوا السَّبِيلَ» (٤٤) «النساء» فقد جاء معنى الكناية في قوله: «يَشْتَرُونَ الضَّلَاةَ» ميلهم إلى الضلال وانصرافهم عن الهداية تعمداً لا جهلاً والمعنى أن ضلالهم